(٨٦)

"الخَلق والميلاد"

ولدته أمه من أبٍ غنيٍ، فأصبح هو الطفل المدلل الذى تمتع منذ ميلاده بتلبية كل طلباته، أما ابن بواب البناية الضخمة، فكان ثامن وليد لوالده، بعد سبعة أبناء قبله كان ترتيبه الأخير بينهم، ليجيئ الدنيا ليشاركهم فى قوت أبيهم المحدود ودخله البسيط الذى يفيهم احتياجاتهم الأساسية بالكاد. وثالثٌ أطل على الدنيا فلم يجد له أبًا على قيد الحياة، فحُرِم طوال حياته من حنان الأب وعطفه والشعور بالاحتماء به من ويلات الدهر ومصاعب العيش. ورابعٌ عرف وهو صغير فى السن أنه يعيش وسط أطفال فى مثل عمره، ولكن بلا أب أو أم، فكان سؤالهم جميعًا عندما يجلسون سويًا: "لماذا وُلدنا بلا أبٍ يرعانا، وأمٍ تحنو علينا وتربينا، مثل بقية الأطفال؟"

ولم يكن ذلك التساؤل محض اهتمام أولئك الأطفال فقط، بل كان موضع اهتمام كل المجتمع حولهم، إذ كان أول سؤالين يُطلَب منهم أن يجيبوا عليهما جبرًا وقسرًا هما:" من هو أبوكم؟ ومن تكون أمكم؟" وفى معظم الأحوال كانت الإجابة على هذين السؤالين مُلقنَّة لهم منذ بداية وعيهم. وما أن يكتشف السائل أن الإنسان الواقف أمامه ليس له أب معلوم، أو أم ذات شأن، أو عائلة لها اسم مشهور، أو تاريخ تتناقله الأجيال، حتى تتبدل نظرته إليه، وتتغير لهجته فى الحوار معه، وما هى إلا ثوانٍ قليلة حتى يفر من أمامه وكأنه كان واقفًا أمام حاملٍ لمرضٍ معدٍ لابد من الإسراع بالابتعاد عنه، وتحاشى الاختلاط به.

وها هى دنيا البشر مليئة بالناس الذين هم جميعًا ليسوا سوى أبناء لناس قبلهم، من الأغنياء ومن الفقراء... من العلماء ومن الجهلاء ... من ذوى السلطات ومِمَن يملكهم السلطان ... من المشهورين ومن المجهولين .. من الشرفاء ومن الخبثاء ..ممن ظلوا يتناسلون منذ قديم الزمان، وممن انقطع نسلهم بلا استئذان ... ممن يعرفون أصلهم وفصلهم ونسبهم، وممن يجهلون حتى الاسم الحقيقي لوالدهم ووالدتهم، ممن كان لأجداد أجدادهم أعرق تاريخ لم يتبق منه سوى القليل من الصور الذهنية التى تستحضرها ذاكرتهم من حينٍ لآخر إثلاجًا لصدورهم بعد تغير حالهم وتبدل أوضاعهم، وممن لا يعرفون لهم شجرة أنساب نبيلة وقديمة فكانوا هم من بدأوا بعملهم وجهدهم بذر أولى بذور شجرة نسبهم الجديدة التى سيتفاخر بها أبناؤهم وأحفادهم فيما بعد على مر أجيالٍ وأجيال.

وكل هؤلاء باختلاف أنسابهم التى يتفاخرون بعراقتها فى كل وقتٍ وحين، أو يتجاهلون الحديث عنها تنكرًا لها أو استحياءً منها، قد انشغلوا بالأسماء وتناسوا المُسمَيات، واهتموا بالألقاب أكثر من اكتراثهم بصانعها وصاحبها، ووضعوا الميلاد نصب أعينهم فأطلقوا على نتاج كل علاقة غير زوجية بطريقة شرعية "غلطة" أو "طفل الخطيئة"، ليعيش طوال حياته يدفع ثمن خطيئة والديه اللذين رفضا وجوده وهو جنين، وتخليا عنه وهو رضيع، وتنكرا له منذ طفولته معتبرين إياه ليس سوى صورة قبيحة لذكرى مشينة لمتعة استمتعا بها للحظات، ما أن انقضت ومضت حتى كان لزامًا على ثمرتها أن تموت هى الأخرى فى الحال. ولكنَّ الخالق قدَّر أن يكون الناس فى الدنيا أبناء من نسل آدم

وزوجه حتى يعلم الجميع الأصل الواحد لنسبه إن تنكر له والداه اللذان أنجباه، فيجيب على كل سائلٍ بثقةٍ جمة أنه ابن "آدم وحواء"، وحتى يتساوى أبناء الأغنياء مع أبناء الفقراء، وأبناء الأقوياء مع أبناء الضعفاء، فلا يكون لأحدهم فضل على الآخر بنسبه القريب وحسبه الطويل السلسلة، بل يكون موضع اهتمام كل إنسان هو معجزة خلق الإنسان نفسها، فيحيا حياته مدركًا قيمة نفسه كمخلوق خلقه الله عزَّ وجلَّ، ولا يصب جل اهتمامه بمولده وفقط، إذ أن الخلق هو الأصل فى الوجود، أما الميلاد أيًا كانت مواصفاته فليس سوى وسيلة لظهور ذلك المخلوق فى الوجود. وإذا انتبه الإنسان إلى أصل وجوده، فسيبحث عن غايته من حياته وسينشغل بها حتى مماته.